على إنائه ومن للتبعيض ويجوز أن يكون لابتداء الغاية على أنها ولدت من القانتين لأنها من أعقاب هُرون أخي موسى صلوات الله عليهما، وعن النبي ﷺ: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع: آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[1]. وأما ما روي أنّ عائشة سألت رسول الله ﷺ: كيف سمى الله المسلمة ـ تعني مريم ـ ولم يسم الكافرة؟ فقال: بغضًا لها، قالت: وما اسمها؟ قال: اسم امرأة نوح واهلة، واسم امرأة لوط واهلة. فحديث أثر الصنعة عليه ظاهر بيّن، ولقد سمى الله تعالى جماعة من الكفار بأسمائهم وكناهم ولو كانت التسمية للحب وتركها للبغض لسمي آسية وقد قرن بينها وبين مريم في التمثيل للمؤمنين وأبى الله إلا أن يجعل للمصنوع أمارةً تنم عليه وكلام رسول الله ﷺ أحكم وأسلم من ذلك. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة التحريم آتاه الله توبةً نصوحًا»[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الملك مكية

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾.

﴿تبارك﴾ تعالى وتعاظم عن صفات المخلوقين ﴿الذي بيده الملك﴾ على كل موجود ﴿وهو على كل﴾ ما لم يوجد مما يدخل تحت القدرة ﴿قدير﴾ وذكر اليد مجاز عن الإحاطة بالملك والاستيلاء عليه. والحياة ما يصح بوجوده الإحساس، وقيل: ما يوجب كون الشيء حيًا وهو الذي يصح منه أن يعلم ويقدر.

ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾.

والموت عدم ذلك[3] فيه، ومعنى خلق الموت والحياة إيجاد ذلك المصصح وإعدامه، والمعنى خلق موتكم وحياتكم أيها المكلفون ﴿ليبلوكم﴾ ويسمى علم الواقع منهم باختبارهم بلوى وهي الخبرة استعارة من فعل المختبر ونحوه قوله تعالى: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم﴾[4].

فإن قُلْتَ: من أين تعلق قوله: ﴿أيكم أحسن عملاً﴾ بفعل البلوى! **قُلْتُ:** من حيث أنه تضمن معنى العلم[5]، فكأنه قيل: ليعلمكم أيكم أحسن عملاً، وإذا قلت: علمته أزيد أحسن عملاً أم هو، كانت هذه الجملة واقعة موقع الثاني من مفعوليه كما تقول: علمته هو أحسن عملاً.

فإن قُلْتَ: تسمى هذا تعليقًا؟ **قُلْتُ:** لا إنما التعليق أن توقع بعده ما يسدّ مسدّ المفعولين جميعًا كقولك: علمت أيهما عمرو وعلمت أزيد منطلق. ألا ترى أنه لا فصل بعد سبق أحد المفعولين بين أن يقع ما بعده مصدرًا بحرف الاستفهام وغير مصدر به، ولو كان تعليقًا لافترقت الحالتان كما افترقتا في قولك: علمت أزيد منطلق وعلمت زيدًا منطلقًا أحسن عملاً. قيل: أخلصه وأصوبه، لأنه إذا كان خالصًا غير صواب لم يقبل وكذلك إذا كان صوابًا غير خالص. فالخالص أن يكون لوجه الله تعالى، والصواب أن يكون على السنة، «وعن النبي ﷺ أنه تلاها فلما بلغ قوله: ﴿أيكم أحسن عملاً﴾. قال: أيكم أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله»[6]. يعني: أيكم أتم عقلاً عن الله وفهمًا لأغراضه، والمراد أنه أعطاكم الحياة التي تقدرون بها على العمل وتستمكنون منه، وسلط عليكم الموت الذي هو داعيكم إلى اختيار العمل الحسن على القبيح لأن وراءه البعث والجزاء الذي لا بد منه، وقدم الموت على الحياة لأنّ أقوى الناس داعيًا إلى العمل من نصب موته بين عينيه فقدم لأنه فيما يرجع إلى الغرض المسوق له الآية أهم ﴿وهو العزيز﴾ الغالب الذي لا يعجزه من أساء العمل ﴿الغفور﴾ لمن تاب من أهل الإساءة.

ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾.

﴿طباقًا﴾ مطابقةً بعضها فوق بعض من طابق النعل إذا خصفها طبقًا على طبق، وهذا وصف بالمصدر، أو على ذات طباق أو على طوبقت طباقًا ﴿من تفاوت﴾ وقرئ: من تفوت، ومعنى البناءين واحد كقولهم: تظاهروا من نسائهم

---

(1) أخرجه ابن حبان في كتاب: أخباره ﷺ عن مناقب الصحابة، (الحديث رقم: 7114)، وأخرجه البخاري في كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضل عائشة رضي الله عنها (الحديث رقم: 3719)، وأبو نعيم في الحلية 5/99.

(2) رواه الثعلبي وابن مردويه والواحدي في تفاسيرهم والزيلعي 4/68.

(3) قال أحمد: أخطأ في تفسير الموت بينه المعروف أن يفسر ويتبع التفسير آراء القدرية، ومنها قطع الله نكرها: أن الموت عدم وهو خطأ صراح، ومعتقد أهل السنة أنه أمر وجودي يضاد الحياة،= وكيف يكون العدم بهذه المثابة، ولو كان العدم مخلوقاً حادثاً، وعدم الحوادث مقرر أزلاً للزم قطع الحوادث أزلاً، وذلك أبشم من القول بقدم العالم، فانظر إلى هذا الهوى أين مؤداه، وكيف أهوى بصاحبه فأرداه، نعوذ بالله من الزلل والخطل.

(4) سورة محمد، الآية: 31.

(5) قال أحمد: التعليق عن أحد المفعولين مختلف فيه بين النحاة والأصح ما أجازه، وهو في هذا الفن يمشي، وفيه يدرج ويدري كيف يدخل فيه ويخرج.

(6) تقدم تخريجه سابقاً.

وتظهروا، وتعاهدته وتعهدته، أي: من اختلاف واضطراب من الخلقة، ولا تناقض إنما هي مستوية مستقيمة. وحقيقة التفاوت عدم التناسب كأن بعض الشيء يفوت بعضًا ولا يلائمه ومنه قولهم: خلقٌ متفاوت وفي نقيضه متناصف.

فإن قُلْتَ: كيف موقع هذه الجملة مما قبلها؟ **قُلْتُ:** هي صفة مشايعة لقوله: طباقًا. وأصلها ما ترى فيهنّ من تفاوت، فوضع مكان الضمير قوله: خلق الرحمٰن تعظيمًا لخلقهنّ وتنبيهًا على سبب سلامتهنّ من التفاوت، وهو أنه خلق الرحمن وأنه يباهر قدرته هو الذي يخلق مثل ذلك الخلق المتناسب. والخطاب في ما ترى المرسول أو لكل مخاطب وقوله تعالى: **﴿فارجع البصر﴾** متعلق به على معنى التسبيب أخبره بأنه لا تفاوت في خلقهنّ، ثم قال: فارجع البصر حتى يصح عندك ما أخبرت به بالمعاينة ولا تبقى معك شبهة فيه **﴿هل ترى من فطور﴾** من صدوع وشقوق، جمع فطر وهو الشق. يقال: فطره فانفطر، ومنه فطر ناب البعير كان يقال: شق وبزل. ومعناه: شق اللحم فطلع.

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

وأمره بتكرير البصر فيهنّ متصفحًا ومتتبعًا يلتمس عيبًا وخللاً **﴿ينقلب إليك﴾** أي: إن رجعت البصر وكررت النظر ثم يرجع إليك بصرك بما التمسته من رؤية الخلل وإدراك العيب بل يرجع إليك بالخسوء والحسور. أي: بالبعد عن إصابة الملتمس كأنه يطرد عن ذلك طردًا بالصغار والقماءة وبالإعياء والكلال لطول الإجالة والترديد.

فإن قُلْتَ: كيف ينقلب البصر خاسئًا حسيرًا برجعه كرّتين اثنتين! **قُلْتُ:** معنى التثنية التكرير[1] بكثرة كقولك: لبيك وسعديك، تريد إجابات كثيرة بعضها في أثر بعض، وقولهم في المثل: دهدرين سعد القين من ذلك أي: باطلاً بعد باطل.

فإن قُلْتَ: فما معنى **﴿ثم ارجع﴾**؟ **قُلْتُ:** أمره برجع البصر، ثم أمره بأن لا يقتنع بالرجعة الأولى بالنظرة الحمقاء وأن يتوقف بعدها ويجم بصره ثم يعاود ويعاود إلى أن يحسر بصره من طول المعاودة فإنه لا يعثر على شيء من فطور.

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾.

﴿الدنيا﴾ القربى لأنها أقرب السموات إلى الناس ومعناه السماء الدنيا منكم. والمصابيح السرج سميت بها الكواكب، والناس يزينون مساجدهم ودورهم بإثقاب المصابيح، فقيل: ولقد زينا سقف الدار التي اجتمعتم فيها **﴿بمصابيح﴾** أي: بأي مصابيح لا توازيها مصابيحكم إضاءة وضممنا إلى ذلك منافع أخرانا **﴿جعلناها رجومًا لـ﴾** أعدائكم لـ **﴿لشياطين﴾** الذين يخرجونكم من النور إلى الظلمات وتهتدون بها في ظلمات البر والبحر، قال قتادة: خلق الله النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يهتدي بها، فمن تأوّل فيها غير ذلك فقد تكلف ما لا علم به. وعن محمد بن كعب: في السماء نجم والله ما لأحد من أهل الأرض، ولكنهم يبتغون الكهانة ويتخذون النجوم علة، والرجوم جمع رجم وهو مصدر سمي به ما يرجم به. ومعنى كونها مراجم للشياطين: أنّ الشهب التي تنقض لرمي المسترقة منهم منفصلة من نار الكواكب، لا أنهم يرجمون بالكواكب أنفسها لأنها قارّة في الفلك على حالها وما ذاك إلا كقبس يؤخذ من نار والنار ثابتة كاملة لا تنقص، وقيل: من الشياطين المرجومة من يقتله الشهاب ومنهم من يخبله، وقيل: معناه وجعلناها ظنونًا ورجومًا بالغيب[2] لشياطين الإنس وهم النجامون. **﴿واعتدنا لهم عذاب السعير﴾** في الآخرة بعد عذاب الإحراق بالشهب في الدنيا.

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾﴾.

وللذين كفروا بربهم أي: ولكل من كفر بالله من الشياطين وغيرهم. **﴿عذاب جهنم﴾** ليس الشياطين المرجومون مخصوصين بذلك، وقرئ عذاب جهنم بالنصب عطفًا على عذاب السعير.

﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾﴾.

﴿إذا ألقوا فيها﴾ أي: طرحوا كما يطرح الحطب في النار العظيمة ويرمى به. ومثله قوله تعالى: **﴿حصب جهنم﴾** **﴿سمعوا لها شهيقًا﴾** إمّا لأهلها ممن تقدّم طرحهم فيها أو من أنفسهم. كقوله **﴿لهم فيها زفير وشهيق﴾**. وإما للنار تشبيهًا لحسيسها المنكر الفظيع بالشهيق **﴿وهي تفور﴾** تغلي بهم غليان المرجل بما فيه.

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾.

وجعلت كالمغتاظة عليهم لشدّة غليانها بهم ويقولون: فلان يتميز غيظًا، ويتقصف غضبًا. وغضب فطارت منه شقة في الأرض وشقة في السماء إذا وصفوه بالإفراط فيه، ويجوز أن يراد غيظ الزبانية. **﴿ألم يأتكم نذير﴾**

---

(1) قال أحمد: وفي قوله: ﴿ينقلب إليك البصر﴾ وضع للظاهر موضع المضمر، وفيه من الفائدة التنبيه على أنّ الذي يرجع خاسئاً حسيراً غير مدرك الفطور هو الآلة التي يلتمس بها إدراك ما هو كائن، فإذا لم يدرك شيء دل على أنه لا شيء، ومن هذا القبيل قوله: ﴿خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من = تفاوت﴾ وأصله ما ترى في خلقهنّ من تفاوت، ولكنه ذكرهنّ منسوبات لخلق الرحمن، تنبيهاً على السبب الذي ربابهنّ على الفطور والتفاوت.

(2) قال أحمد: وهذا من الاستطراد لما ذكر وعيد الشياطين استطرد ذلك وعيد الكافرين عموماً، والله أعلم.

توبيخ يزدادون به عذابًا إلى عذابهم وحسرة إلى حسرتهم. وخزنتها مالك وأعوانه من الزبانية.

قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾.

﴿قالوا بلى﴾ اعتراف منهم بعدل الله وإقرار بأن الله عز وعلا أزاح عللهم ببعثة الرسل وإنذارهم ما وقعوا فيه وأنهم لم يؤتوا من قدره كما تزعم المجبرة وإنما أتوا من قبل أنفسهم واختيارهم خلاف ما اختار الله وأمر به وأوعد على ضدّه.

فإن قُلْتَ: ﴿إن أنتم إلا في ضلال كبير﴾ من المخاطبون به! **قُلتُ:** هو من جملة قول الكفار وخطابهم للمنذرين على أنّ النذير بمعنى الإنذار، والمعنى: ألم يأتكم أهل نذير أو وصف منذروهم لغلوهم في الإنذار كأنهم ليسوا إلا إنذارًا، وكذلك قد جاءنا نذير ونظيره قوله تعالى: ﴿إنَّا رسول رب العالمين﴾ أي: حاملاً رسالته، ويجوز أن يكون من كلام الخزنة للكفار على إرادة القول أرادوا حكاية ما كانوا عليه من ضلالهم في الدنيا، أو أرادوا بالضلال الهلاك، أو سموا عقاب الضلال باسمه، أو من كلام الرسل لهم حكوه للخزنة، أي: قالوا لنا هذا فلم نقبله.

وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾.

﴿لو كنا نسمع﴾ الإنذار سماع طالبين للحق[1]. أو نعقله عقل متأمّلين، وقيل: إنما جمع بين السمع والعقل لأنّ مدار التكليف على أدلة السمع والعقل. ومن بدع التفاسير أنّ المراد لو كنا على مذهب أصحاب الحديث أو على مذهب أصحاب الرأي[2]، كأن هذه الآية نزلت بعد ظهور هذين المذهبين، وكأن سائر أصحاب المذاهب والمجتهدين قد أنزل الله وعيدهم، وكأن من كان من هؤلاء فهو من الناجين لا محالة، وعدّة المبشرين من الصحابة عشرة لم يضم إليهم حادي عشر كأن من يجوز على الصراط أكثرهم لم يسمعوا باسم هذين الفريقين.

فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾.

﴿بذنبهم﴾ بكفرهم في تكذيبهم الرسل **﴿فسحقًا﴾** قرئ بالتخفيف والتثقيل أي: فبعدًا لهم اعترفوا أو جحدوا فإنّ ذلك لا ينفعهم.

وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾.

ظاهره الأمر بأحد الأمرين الإسرار والإجهار. ومعناه: ليستوِ عندكم إسراركم وإجهاركم في علم الله بهما ثم أنه علله. **﴿إنه عليم بذات الصدور﴾** أي: بضمائرها قبل أن تترجم الألسنة عنها، فكيف لا يعلم ما تكلم به؟ ثم أنكر أن لا يحيط علمًا بالمضمر والمسر والمجهر.

أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾.

﴿من خلق﴾ الأشياء[3] وحاله أنه اللطيف الخبير والمتوصل علمه إلى ما ظهر من خلقه وما بطن، ويجوز أن يكون من خلق منصوبًا بمعنى ألا يعلم مخلوقه وهذه حاله. وروي أنّ المشركين كانوا يتكلمون فيما بينهم بأشياء فيظهر الله رسوله عليها فيقولون: أسروا قولكم لئلا يسمعه إله محمد، فنبه الله على جهلهم.

فإن قُلْتَ: قدرت في ألا يعلم مفعولاً على معنى ألا يعلم ذلك المذكور مما أضمر في القلب وأظهر باللسان من خلق فهلا جعلته مثل قولهم: هو يعطي ويمنع، وهلا كان المعنى ألا يكون عالمًا من هو خالق؛ لأنّ الخلق لا يصح إلا مع العلم! **قُلتُ:** أبت ذلك الحال التي هي قوله: **﴿وهو اللطيف الخبير﴾**. لأنك لو قلت ألا يكون عالمًا من هو خالق وهو اللطيف الخبير لم يكن معنىً صحيحًا لأنّ ألا يعلم معتمد على الحال والشيء لا يوقت بنفسه، فلا يقال: ألا يعلم وهو عالم، ولكن ألا يعلم كذا وهو عالم بكل شيء.

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾.

المشي في مناكبها مثل لفرط التذليل ومجاوزته الغاية، لأنّ المنكبين وملتقاهما من الغارب أرق شيء من البعير وأنبأه عن أن يطأه الراكب بقدمه ويعتمد عليه، فإذا جعلها في الذل بحيث يمشي في مناكبها لم يترك، وقيل: مناكبها

---

(1) قال أحمد: إن عني أن الأحكام الشرعية تستفاد من العقل كما تستفاد من السمع بناء على قاعدة التحسين والتقبيح، فهو غير بعيد من أصحاب السعير، وإن عني أنّ العقل يرشد إلى العقائد الصحيحة والسمع يختص بالأحكام الشرعية، فهو مع أهل السنة.

(2) قال أحمد: ولو تفطن نبيه لهذه الآية لقدها دليلاً على تفضيل السمع على البصر، فإنه قد استدل على ذلك بأخفى منها.

(3) قال أحمد: هذه الآية ردّ على المعتزلة وتصحيح للطريق التي يسلكها أهل السنة في الردّ عليهم، فإنّ أهل السنة يستدلون على أن العبد لا يخلق أفعاله بأنه لا يعلمها، وهو استدلال بنفي اللازم الذي هو العلم على نفي الملزوم الذي هو الخلق، وبهذه الملازمة دلت الآية، فإن الله تعالى أرشد إلى الاستدلال على ثبوت العلم له عزّ وجل بثبوت الخلق، وهو استدلال بوجود الملزوم على وجود = اللازم، فهو نور واحد يقتبس منه ثبوت العلم للباري عزّ وجل، وإبطال خلق العبد لأفعاله وإعراب الآية، ينزل على هذا المعنى، فإن الوجه فيها أن يكون من فاعلاً مراداً به الخالق، ومفعول العلم محذوف تقديره ذلك إشارة إلى السر والجهر، ومفعول خلق محذوف ضميره، عائد إلى ذلك والتقدير في الجميع ألا يعلم السر والجهر من خلقهما، ومتى حدونا غير هذا الوجه من الإعراب ألقانا إلى مضايق التكلف والتعسف، فمن المحتمل أن يكون من مفعولة واقعة على فاعل السر والجهر والتقدير، ألا يعلم الله المسرين والجاهرين، وليس مطابقاً للمفصل فإنه لم يقع على ذوات الفاعلين، وإنما وقع على أفعالهم من السر والجهر، وعليه وقع الاستدلال، ويحتمل غير ذلك أبعد منه والأوّل هو الأولى لفظاً ومعنى، والله الموفق.

جبالها، قال الزجاج: معناه سهل لكم السلوك في جبالها، فإذا أمكنكم السلوك في جبالها فهو أبلغ التذليل. وقيل: جوانبها. والمعنى: وإليه نشوركم فهو مسائلكم عن شكر ما أنعم به عليكم.

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾

﴿مَن في السماء﴾ فيه وجهان: أحدهما من ملكوته في السماء لأنها مسكن ملائكته، وثم عرشه وكرسيه واللوح المحفوظ ومنها تنزل قضاياه وكتبه وأوامره ونواهيه، والثاني أنهم كانوا يعتقدون التشبيه وأنه في السماء وأنّ الرحمة والعذاب ينزلان منه وكانوا يدعونه من جهتها. فقيل لهم على حسب اعتقادهم: أأمنتم من تزعمون أنه في السماء وهو متعالٍ عن المكان أن يعذبكم بخسف أو بحاصب، كما تقول لبعض المشبهة أما تخاف من فوق العرش أن يعاقبك بما تفعل إذا رأيته يركب بعض المعاصي. ﴿فستعلمون﴾ قرئ بالتاء والياء ﴿كيف نذير﴾ أي: إذا رأيتم المنذر به علمتم كيف إنذاري حين لا ينفعكم العلم.

أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾.

﴿صافات﴾ باسطات أجنحتهن في الجوّ عند طيرانها لأنهن إذا بسطتها صففن قوادمها[1] صفًا ﴿ويقبضن﴾ ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن.

فإن قُلْتَ: لم قيل ويقبضن ولم يقل وقابضات؟ **قُلْتُ:** لأن الأصل في الطيران وهو صف الأجنحة، لأنّ الطيران في الهواء كالسباحة في الماء، والأصل في السباحة مد الأطراف وبسطها. وأما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به على التحرك فجيء بما هو طار غير أصل بلفظ الفعل على معنى: أنهن صافات ويكون منهن القبض تارة بعد تارة كما يكون من السابح ﴿ما يمسكهنّ إلا الرحمن﴾ بقدرته وبما دبر لهن من القوادم والخوافي وبنى الأجسام على شكل وخصائص قد تأتي منها الجري في الجو. ﴿إنه بكل شيء بصير﴾ يعلم كيف يخلق وكيف يدبر العجائب.

أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾.

﴿أمن﴾ يشار إليه من الجموع ويقال: ﴿هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون﴾ الله إن أرسل عليكم عذابه.

أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ بَل لَّجُّوا۟ فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾.

﴿أمن﴾ يشار إليه ويقال: ﴿هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه﴾ وهذا على التقدير، ويجوز أن يكون إشارةً إلى جميع الأوثان لاعتقادهم أنهم يحفظون من النوائب ويرزقون ببركة آلهتهم. فكأنهم الجند الناصر والرازق ونحوه قوله تعالى: ﴿أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا﴾. ﴿بل لجوا في عتو ونفور﴾ بل تمادوا في عناد وشراد عن الحق لثقله عليهم فلم يتبعوه. يجعل أكب مطاوع كبه يقال: كببته فأكب من الغرائب والشواذ، ونحوه قشعت الريح السحاب فأقشع. وما هو كذلك ولا شيء من بناء أفعل مطاوعًا ولا يتقن نحو هذا إلا حملة كتاب سيبويه وإنما أكب من باب انفض والأم ومعناه: دخل في الكب وصار ذا كب، وكذلك أقشع السحاب دخل في القشع ومطاوع كب وقشع انكب وانقشع.

أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾.

فإن قُلْتَ: ما معنى:

﴿يمشي مكبًا على وجهه﴾؟ وكيف قابل يمشي سويًا على صراط مستقيم؟ **قُلْتُ:** معناه يمشي معتسفًا في مكان معتاد غير مستوفية وفيه انخفاض وارتفاع فيعثر كل ساعة فيخر على وجهه منكبًا فحاله نقيض حال من يمشي سويًا أي: قائمًا سالمًا من العثور والخرور، أو مستوى الجهة قليل الانحراف خلاف المعتسف الذي ينحرف هكذا وهكذا على طريق مستوٍ. ويجوز أن يراد الأعمى الذي لا يهتدي إلى الطريق فيعتسف فلا يزال ينكب على وجهه وأنه ليس كالرجل السوي الصحيح البصر الماشي في الطريق المهتدي له، وهو مثل للمؤمن والكافر. وعن قتادة: الكافر أكب على معاصي الله تعالى فحشره الله يوم القيامة على وجهه. وعن الكلبي: عنى به أبو جهل بن هشام وبالسوي رسول الله ﷺ. وقيل: حمزة بن عبد المطلب.

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾.

﴿فلما رأوه﴾ الضمير للوعد والزلفة القرب وانتصابها على الحال أو الظرف، أي: رأوه ذا زلفة أو مكانًا ذا زلفة. ﴿سيئت وجوه الذين كفروا﴾ أي: ساءت رؤية الوعد

---

(1) قال أحمد: ويلاحظ هذا المعنى في قوله: ﴿والطير محشورة﴾ بعد قوله: ﴿إنا سخرنا الجبال معه يسبحن﴾ ولم يقل: مسبحات مثل محشورة، لقربه من هذا التفسير، ولقد أحسن فيه كل الإحسان.

وجوههم بأنّ علتها الكآبة وغشيها الكسوف والقترة وكلحوا وكما يكون وجه من يقاد إلى القتل أو يعرض على بعض العذاب ﴿وقيل﴾: القائلون الزبانية ﴿تدعون﴾ تفتعلون من الدعاء أي: تطلبون وتستعجلون به، وقيل: هو من الدعوى أي: كنتم بسببه تدعون أنكم لا تبعثون، وقرئ: تدعون، وعن بعض الزهاد أنه تلاها في أول الليل في صلاته فبقي يكررها وهو يبكي إلى أن نوى لصلاة الفجر ولعمري أنها لوقاذة لمن تصور تلك الحالة وتأملها.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾.

كان كفار مكة يدعون على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين بالهلاك، فأمر بأن يقول لهم نحن مؤمنون متربصون لإحدى الحسنيين إما أن نهلك كما تتمنون فننقلب إلى الجنة أو ترحم بالنصرة والإدالة للإسلام كما نرجو، فأنتم ما تصنعون من يجيركم وأنتم كافرون من عذاب النار لا بدّ لكم منه؟ يعني: إنكم تطلبون لنا الهلاك الذي هو استعجال للفوز والسعادة وأنتم في أمر هو الهلاك الذي لا هلاك بعده، وأنتم غافلون لا تطلبون الخلاص منه، أو إن أهلكنا الله بالموت فمن يجيركم بعد موت هداتكم والآخذين بحجزكم من النار، وإن رحمنا بالإمهال والغلبة عليكم وقتلكم فمن يجيركم فإنّ المقتول على أيدينا هالك. أو إن أهلكنا الله في الآخرة بذنوبنا ونحن مسلمون فمن يجير الكافرين وهم أولى بالهلاك لكفرهم، وإن رحمنا بالإيمان فمن يجير من لا إيمان له.

فإن قُلْتَ: لم أخر مفعول آمنّا وقدم مفعول توكلنا؟ **قُلْتُ:** لوقوع آمنا تعريضًا بالكافرين حين ورد عقيب نكرهم.

قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾.

كأنه قيل: آمنا ولم نكفر كما كفرتم، ثم قال: وعليه توكلنا خصوصًا لم نتكل على ما أنتم متكلون عليه من رجالكم وأموالكم.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾.

﴿غورًا﴾ غائر إذا هبا في الأرض وعن الكلبي: لا تناله الدلاء وهو وصف بالمصدر كعدل ورضا وعن بعض الشطار أنها تليت عنده فقال: تجيء به الفؤس والمعاول فذهب ماء عينيه. نعوذ بالله من الجراءة على الله وعلى آياته. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الملك فكأنما أحيا ليلة القدر»[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة القلم مكية

نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾.

قرئ: ن والقلم بالبيان والإدغام وبسكون النون وفتحها وكسرها، كما في ص. والمراد هذا الحرف من حروف المعجم، وأمّا قولهم: هو الدواة. فما أدري أهو وضع لغوي أم شرعي، ولا يخلو إذا كان اسمًا للدواة من أن يكون جنسًا أو علمًا، فإن كان جنسًا فأين الإعراب والتنوين؟ وإن كان علمًا فأين الإعراب؟ وأيهما كان فلا بد له من موقع في تأليف الكلام فإن قلت: هو مقسم به وجب إن كان جنسًا أن تجرّه وتنونه ويكون القسم بدواة منكرة مجهولة. كأنه قيل: ودواة والقلم. وإن كان علمًا أن تصرفه وتجرّه أو لا تصرفه وتفتحه للعلمية والتأنيث. وكذلك التفسير بالحوت. إما أن يراد نون من النينان، أو يجعل علمًا لليهموت الذي يزعمون، والتفسير باللوح من نور أو ذهب، والنهر في الجنة نحو ذلك وأقسم بالقلم تعظيمًا له لما في خلقه وتسويته من الدلالة على الحكمة العظيمة ولما فيه من المنافع والفوائد التي لا يحيط بها الوصف. ﴿وما يسيطرون﴾ وما يكتب من كتب، وقيل: ما يستره الحفظة، وما موصولة أو مصدرية. ويجوز أن يراد بالقلم أصحابه فيكون الضمير في يسطرون لهم، كأنه قيل: وأصحاب القلم ومسطوراتهم أو وسطرهم، ويراد بهم كل ما يسطر أو الحفظة.

مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾.

فإن قُلْتَ: بم يتعلق الباء في.

﴿بنعمة ربك﴾ وما محله؟ **قُلْتُ:** يتعلق بمجنون منفيًا كما يتعلق بعاقل مثبتًا في قولك: أنت بنعمة الله عاقل مستويًا في ذلك الإثبات والنفي استواءهما في قولك: ضرب زيد عمرًا. وما ضرب زيد عمرًا تعمل الفعل مثبتًا ومنفيًا إعمالاً واحدًا ومحله النصب على الحال كأنه قال: ما أنت بمجنون منعمًا عليك بذلك ولم تمنع الباء أن يعمل مجنون فيما قبله لأنها زائدة لتأكيد النفي. والمعنى: استبعاد ما كان ينسبه إليه كفار مكة عداوّة وحسدًا وأنه من إنعام الله عليه بحصافة العقل والشهامة التي يقتضيها التأهيل للنبوّة بمنزلة.

وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾.

﴿وإنّ لك﴾ على احتمال ذلك وإساغة الغصة فيه والصبر عليه ﴿لأجرا﴾ لثوابًا ﴿غير ممنون﴾ غير مقطوع

(1) رواه ابن مردويه والواحدي في تفسيرهما والزيلعي 4/71.